على هامش السيرة

نزيل حمص

للدكتور طه حسين

قال عمير بن عبد الله السلمي لمحمد بن نصر الكلابي : إن لله فيما يأتي من الأمر لحكمة بالغة يفهمها الناس حيناً ويقصرون عن فهمها في كثير من الأحيان . وإن الرجل الرشيد خليق أن يتمهل بما فهم ، وألا يلح في تأويل ما لم يفهم ، وأن يطمئن قلبه إلى أن حكمة الله بالغة ، وإلى أن قضاءه منته إلى الخير دائماً

قال محمد بن نصر لصاحبه : هو ذاك ، وما أظن أن أحداً منا ينكر ذلك أو يماري فيه فما تحدثك به ؟ وما هذا التفكير العميق الذي أرى آثاره بادية في وجهك ؟ وكان هذان الرجلان من فتيان قيس ، شديدي البأس ، قد ملأ قلبهما إيمان قوي بالله ، وتحفاظ قوي للعرب ، واعتزاز قوي بالنفس ، وحب قوي للجهاد . وكانا قد مضيا مع الصائفة غازيين حتى بلغا ثغراً من ثغور الروم ، فأمعنا في الغزو ولقيا فيه من الجهد والشدة ، واحتملا فيه من المشقة والبلاء شيئاً عظيماً ، لم يزدهما إلا إيماناً على إيمان ، وتحفاظاً إلى تحفاظ ، وحباً للجهاد إلى حبهم القديم للجهاد ، وكان الله عز وجل قد قضى لهما أن يعودا من هذه الغزوة موفورين ، فلما بلغا مأمنهما مع الجيش من بلاد المسلمين نذرا لئن مد الله في حياتهما حتى ينقضي الشتاء ، وتستأنف الصائفة من قابل غارتها على بلاد الروم ليكونن لهما في هذه الغارة بلاء ، وليضمن كل واحد منهما نفسه في مقدمة الجيش المغير ، وكانا قد أزمعا من أجل ذلك ألا يبعدا في الرجوع إلى موطنهما ، وأن ينفقا فصل الشتاء في مدينة من مدن المسلمين هذه المنبثة في الشام ، والتي ترابط فيها الجنود ، قد قسمت بينها تقسيماً ، ووزعت عليها توزيعاً ، ولم يكونا من أصحاب الديوان في جند من أجناد الشام ، وإنما كانا رجلين قد باعا أنفسهما من الله وتطوعا في الجهاد ، وأقبلا يبتغيان المثوبة ، فلحقا بالصائفة فيمن يلحق بها من المتطوعين ؛ ولم يصرفهما عن حمص أنها لم تكن للمضرية داراً ، وما يريدان إلى المضرية أو إلى اليمنية ، وهما إنما يمران بهذه المدينة مروراً ينتظران أن ينقضي فصل من فصول العام ويقبل فصل آخر ليستأنفا نشاطهما وليقبلا على ما يبتغيان من ثواب الله مجاهدين ؟

فلما استقر بهما المقام في حمص أياماً وأسابيع أخذا يدوران فيها ويتعرفان بعض أمرها ، ويسمعان إلى ما كان يجري على ألسنة أهلها من بعض الحديث . وقلما كان أحدهما يخرج منفرداً ، إنما كانا في أكثر أوقاتهما متلازمين كأن ما دفعهما إلى الهجرة من أوطانهما قد جمع بين نفسيهما في الجهد والبأس ، كما جمع بين نفسيهما في الرخاء واللين . فقلما كانا يفترقان أثناء الغارة على اختلاف الظروف وتباين الخطوب التي كانت تعرض للجيش وتلم بالمغيرين . وهما الآن لا يفترقان أو لا يكادان يفترقان ، وقد أظلهما الأمن وضمنتهما سلم لا يخافان معها شدة ولا بأساً ولا فراقاً . ولكنهما في هذا اليوم لم يكادا ينفتلان من صلاة الغداة حتى فرقت بينهما حركة الناس وازدحامهم مسرعين كأن هناك أمراً ذا بال يروعهم ويدعوهم إلى الازدحام ويدفعهم إلى أن يشهدوا مشهداً يجب أن يشهده الناس . وقد دفع محمد بن نصر مع المزدحمين وأسرع مع المسرعين ، لم يكن له في ذلك رأي أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن حمد ما أدركه من ذلك ، فمضى مع الماضين مختاراً لا كارهاً ، وحرص على أن ينتهي إلى حيث كانوا يريدون أن ينتهوا . وقد سمع في أثناء ذلك ما سمع ، ورأى ما رأى ، وامتلأ قلبه بالعظات والعبر ، وشغل عقله بالتفكير المتصل العميق ، حتى إذا تفرق الناس وكلهم يملأ نفسه العجب عاد إلى صاحبه يحدثه بما سمع ويحدثه بما رأى ، ويبدأ حديثه بهذا الكلام الذي أوجزته لك آنفاً

فلما سأله صاحبه عما به قال : لقد شهدت اليوم أمراً عظيماً : شهدت جنازة رجل ملأ قلوب الناس حباً وبغضاً ، ورضى وسخطاً ،

وأثار فى نفوسهم كثيراً من الحفيظة ، بل حفيظة لا تنتهى ، وأثار فى نفوس الناس كذلك إعجاباً وإكباراً ، وأطلق ألسنة الناس بالذم الشنيع ، وأطلق ألسنة الناس بالثناء الكثير ، ورسم على وجوه الناس آثار الموجدة المنكرة ، ورسم على وجوه الناس كذلك آثار الاعتراف بالجميل ، ورسم على وجوههم بين ذلك ابتسامات فيها سخرية وازدراء ، وفيها عطف واشفاق ؛ ثم رأيت الناس يعودون من تشييعه إلى قبره ، وإن الحيرة لتملأ قلوبهم ، وإن الشك ليضطرب فى نفوس كثير منهم ، وإنهم على هذا كله ليقولون فيما بينهم مثل ما كنت أقوله لك منذ حين ، وانهم على هذا كله ليظهرون الثقة بحكمة الله البالغة والاطمئنان إلى عفوه الذى ينال به من يشاء

قال عمير بن عبدالله : مارأيت كاليوم رجلاً يؤثر التلميح على التصريح ، ويقصد إلى الغموض دون الوضوح ، فحدثنى بحديثك لا أبالك ولا انطل ؛ فما تعودت منك اطالة ولا ابلالاً . قال محمد بن نصر : فالله يعلم ما آثرت تلميحاً ، ولا اجتنبت تصريحاً ، ولا قصدت إلى غموض ، ولا تنكبت وضوحاً ، وإنما أصور لك نفسى كما أجدها ، وما أدرى كيف أتحدث إليك بهذا الحديث ، وما أعرف من أين آخذه . آخذه من مبتدئه أم آخذه من منتهاه ، أم آخذه مما بين ذلك ، فان كل موضع منه تملؤه العبرة والعظة ، وتظهر فيه هذه الروعة التى تتأثر لها القلوب ، وتفكر فيها العقول . إنه رجل لم يعرف الناس من أول أمره إلا أنه كان عبداً حبشياً لسيد من سادات قريش فى مكة ، هو جبير بن مطعم ، وكانوا يرونه فتى شديد البأس عظيم الأيد شجاعاً جريئاً ، يعمل لسيده فيما يعمل فيه الرقيق ، ولو أن الرق لم يعرض له لكان خليقاً أن يسود فى بلده وبين قومه هؤلاء السود . ولكن الرق عرض له كما عرض لكثير من أشراف الروم والفرس فألقاه إلى هذا الحى من قريش ، وفرض عليه ما يفرض على الأرقاء ، من الخنوع ، والخضوع ، ومن الذلة والهوان ، ومن العمل فيما لا يعمل فيه أصحاب النجدة والمروءة من الناس . وكان هذا الفتى ضيقاً بحياته أشد الضيق ، منكراً لها أعظم الانكار ، جامحاً حين يتاح له الجموح ، شامساً حين يتهيأ له الشموس ، لا يخفى بغضه للرق وطمعه فى الحرية مهما يكلفه ذلك من غضب سادته وزجرهم ، ومن اعنائهم له والحاحهم عليه بالاعنات . وكانت قريش قد لقيت من النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه جهداً شديداً يوم بدر ، وفقدت جماعة من ساداتها وأشرافها ، وذاقت الهزيمة المنكرة ، وذاقت فقد الأحباء ، وذاقت هذا الذل الذى يكره العرب أن يذوقوه ، ذل الموتور الذى لم يدرك وتره ؛ وكانت قريش تتجهز لادراك الوتر والأخذ بالثأر ، وشفاء حزازات النفوس ، وارضاء قتلاها من أهل الحفير ؛ وكان جبير بن مطعم قد فقد عمه طعيم بن عدى يوم بدر ، وكان حريصا على أن يثأر به وينتقم له من قاتله . ولم يكن قاتله إلا حمزة ابن عبد المطلب عم النبى ، وأسد الله ، وشجاع قريش ، وحامل لواء المسلمين لأول ما عقد اللواء . قال عمير بن عبد الله : فانك إنما تتحدث عن وحشى ، فما خطبه وما الصلة بينه وبين هذا الرجل الذى شهدت جنازته منذ اليوم ؟ قال محمد بن نصر : فان هذا الرجل الذى شهدت جنازته منذ اليوم هو وحشى نفسه . قال عمير : ليتنى عرفت مكانه من هذه المدينة حين أقبلت اليها إذن لسعيت اليه ، ولسمعت منه ، ولسألته عن بلائه ذلك المنكر . قال محمد بن نصر : وكذلك قلت لنفسى أنا منذ حين ، ولكنى رأيت من رآه ، وسمعت ممن سمع منه ، ولقد رأى من رآه رجلاً كان خليقا أن يرى ، وأن الذين سمعوا منه ليتحدثون من أمره بالأعاجيب . قال له سيده حين أجمعت قريش أمرها : إنى أرى شوقك إلى الحرية وكلفك بها ، وإسرافك فى الجموح ، وامتناعك عما لا ينبغى لمثلك أن يمتنع عنه من الطاعة والأذعان لمواليه ، وإنى أعرض عليك هذه الحرية التى تهواها ، فان شئت فأد ثمنها ، وما أظنك تفعل . قال العبد : فقد شئت أن أؤدى إليك ثمن هذه الحرية لو أنى أستطيع أن أبلغه فى جو السماء أو فى أقصى الأرض . قال جبير : فانه أدنى إليك من ذلك ، إنه فى يثرب ، فاذهب مع قريش فى حربها هذه التى تتجهز لها ، ثم عد إلى بعقتل حمزة وأنت بعد ذلك طليق

قال العبد : أما إنى ذاهب مع قريش فعائد اليك بعقتل صاحبك أولاق من دون ذلك الموت فهو أهون على وآثر عندى من حياة الرقيق

ولقد سمع الناس منه حديثه عن ذلك البلاء المنكر الذى أبلاه يوم أحد ، وما أرى إلا أنك تعرفه كما أعرفه ، فقد أخذ يرقب حمزة ، وهو يقوم من المسلمين مقام الأسد يذود عن أشباله ، يهز الجيش بسيفه هزاً ، والناس يرونه من بعيد كأنه الجمل الأورق ، فتمتلئ قلوبهم لمنظره رعباً ، وينصرفون عن موقفه انصرافاً ،

وهو يتحداهم ويدعو فرسانهم ومغاويرهم . والعبد قائم قد استتر عنه بشجرة ينظر اليه ويرتقب غفلته ، وحمزة لا يراه ولا يحس بمكانه . فلما أمكنته الفرصة هز حربته حتى رضى عنها ، ولم يكن له بغير الحربة من السلاح علم ، فلما تهيأت له الرمية رمى ، وإذا الحربة تصيب حمزة فى مقتل فيخر صريعاً ، والعبد قائم مكانه لا يريم ، يرقب أسد الله صريعاً بعد أن كان يرقبه جائلاً فى الميدان ؛ فلما استوثق من أن صريعه قد قضى أقبل يسعى اليه ، فانتزع حربته ثم عاد إلى المعسكر فأقام فيه . لم يصنع قبل مقتل حمزة شيئاً ، ولم يصنع بعد مقتل حمزة شيئاً ، وما يعنيه من أمر هذه الحرب بين قريش والأنصار ، وإنما أقبل يشترى حريته بمقتل هذا الرجل العظيم ؛ وقد ظفر بما أراد ، فانتظر تقول قريش إلى مكة ، ولم يشهد ما كان من تمثيل هند وصاحباتها بهم النبي ، ولم يشهد ما كان من حزن النبي حين رأى عمه فى منظر لم ير (صلى الله عليه وسلم) قط منظراً أوجع له وأثقل عليه منه . ولم يسمع العبد نذير النبي حين أقسم لئن أظفره الله على قريش ليمثلن منهم بسبعين مثلة لم تعرفها العرب قط ، ولم يعلم العبد أن النبي قد رُد عن ذلك رداً ، وأن الله قد أنزل فى ذلك قرآنا ، وأن النبي قد تلا قول الله عز وجل : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

ولم يعلم العبد أن النبي قد اضطر إلى أن يكفر عن يمينه ، ثم لم يعلم العبد أن النبي قد عاد الى المدينة محزوناً أسفا ، فلما سمع نساء بنى الأشهل يبكين قتلاهن قال : ولكن حمزة لا بواكى له ! وسمع ذلك منه الأنصار ، فأرسلوا نساءهم يبكين حمزة عند بيت النبي ، وخرج نساء النبي فبكين معهن حتى ردهن النبي داعيا لهن ، ثم أصبح فنهى عن البكاء

لم يعلم العبد من هذا شيئاً ، وماذا يعنيه من هذا ، إنما كان يريد حريته وقد بلغها ، وماذا صنع البائس بحريته ؟ لم يعد الى بلده ، وكيف سبيل العودة اليها ؟ ولم يعد فى مكة ، وكيف السبيل الى السيادة فيها ؟ إنما عاش بين قريش حراً كالعبد ، وطليقاً كالأسير . نعم لم يعلم العبد بشىء من هذا ، ولكنه علم ذات يوم أن جيوش المسلمين مقبلة على مكة ، ورأى ذات صباح جيوش المسلمين تدخل مكة ، واستيقن العبد أنه مقتول إن ظفر به المسلمون ، ففر وانطلق فى الأرض يلتمس لنفسه مأمناً فلا يجده . هؤلاء المسلمون ينتصرون على العرب يوم حنين ، وهذه أرض العرب كلها تذعن للنبي ، فأين الملجأ من الله إلا الى الله ؟ لقد آوى العبد الى الطائف وقاوم فيها المسلمين ما قاومهم أهلها ، ولكن وفد الطائف يتهيأ للسفر الى المدينة ، وما هى إلا أيام حتى تذعن الطائف لما أذعنت له مكة . والآن يفكر العبد فى مهاجرة البلاد العربية كلها . ولكن كيف السبيل الى الهجرة ؟ لقد أخذت عليه سبيل الحبشة ، وأخذت عليه سبيل الروم ، وانبسط سلطان النبي على الشمال والجنوب . لقد كانت الهجرة ميسورة قبل الآن . فأما الآن فقد تقطعت من دونها الأسباب

هنالك يلقى بعض الناس فى نفس العبد أن النبي لم يقتل قط رجلاً جاءه مسلماً ؛ وأن النبي ذات يوم لجالس بين أصحابه ، وإذا رجل قائم على رأسه يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ؛ وينظر النبي فيرى العبد فيعرفه ، ولكن الله قد عصم دمه بالاسلام ، وما قتل النبي قط رجلاً جاءه مسلماً ، وإن كان قد قتل عمه حمزة . فيأمر النبي ذلك العبد أن يجلس ويحدثه كيف قتل عمه ؛ وهذا العبد قد جلس وهو يعيد على النبي بلاءه المنكر ، وحديثه يملأ قلب النبي حزناً ولوعة وأسى ؛ والعبد بين يديه ، لو أراد لأرضى حزنه ولوعته بمصرعه ، ولكن أنى له ذلك وقد اعتصم العبد بالاسلام ؟

وقد آثر النبي أن يعفو ، وآثر أن يصبر . أليس قد عفا عن هند وقد مثّلت بعمه ولاكت كبده ، وجدعت أنفه وأذنيه ؟ فما له لا يعفو عن عبد مأمور ؟ ولكنه قال للعبد : غيب وجهك عنى ، فجعل العبد لا يرى رسول الله إلا تنكب طريقه واجتنب لقاءه

وعاش وحشى فى المدينة حراً كالعبد ، وطليقاً كالأسير ، وجعل الندم يحز فى قلبه حزاً ، ويمزق فؤاده تمزيقاً ، يؤرقه إذا دنا الليل ، ويعذبه إذا أقبل النهار

ولكن العرب يرتدون ، ويذهب خالد بن الوليد لقتال مسيلمة ، وهذا العبد يذهب معه ليقاتل فى سبيل الله بعد أن كان يصد عن سبيل الله

وهذا العبد يهز حربته ذات يوم كما هزها يوم أحد ، ويتهيأ لرميها كما تهيأ يوم أحد ، ثم يطلقها كما أطلقها يوم أحد ، وإذا

هى تصيب رجلا فتصرعه ، واذ الحربة التى قتلت حمزة قد شاركت فى قتل مسيلمة ، واذا وحشى قد قتل خير الناس ، وقتل شر الناس . وقد عفا النبي عن قاتل عمه ، وعفا المسلمون عن قاتل أسد الاسلام ، ولكن نفس وحشى لم تعف عن وحشى ، ولكن دم مسيلمة لم يغسل من نفسه دم حمزة . وهذا العبد الحر يمضى مع جيوش المسلمين غازياً فيقاتل الروم وينتصر مع المنتصرين ، ويستقر مع المستقرين فى مدينة حمص هذه . ولكن بلاءه أيام الردة وبلاءه أيام الفتح ، وما احتمل فى هذا كله من جهد ، وما ناضل فى هذا كله عن الاسلام ، لم تغسل عن نفسه دم حمزة ، ولم تبرئ نفسه من الندم لقتل حمزة ؛ ولم يبلغ الاسلام من قلب هذا الرجل ما بلغ من قلوب كثير من الناس فيمحو من قلبه ما قدم فى جاهليته ، واذا هو يستعين على الندم بالخمر ، واذا هو يشرب ويسرف فى الشرب ، واذا هو يُضرب فى الشراب فلا يمنعه الحد من معاودة الشراب ، واذا هو معروف فى أهل حمص بما قدم من خير وشر ، واذا هو معروف فى أهل حمص بسكره اذا سكر ، وبصحوه اذا صحا ، واذا هو يسكر حتى يصبح مخوفاً على من يدنو منه ، ويصحو حتى يصبح عاقلا حلو الحديث . والندم يلح عليه حتى يبغضه الى نفسه تبغيضاً ، ويصرفه عن الصحو صرفاً ، وكلما مضت عليه الأيام ازداد امعاناً فى الشراب ، والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئاً فشيئاً ، وعقله يذهب قليلاً قليلاً ، والندم ماثل مع ذلك فى نفسه ، ملح بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا الى الفرار منه إلا الى الشراب ، وهو يُضرب فى الشراب ، وقد ضعف وفني فلا يحتمل الضرب فيموت . ونشهد جنازته اليوم

أرأيت أنى لم أكن ملحا ولا مؤثراً للغموض حين كنت أحدثك بما كنت أحدثك به من هذه المواطف المختلفة التى كانت تثيرها جنازته فى نفوس الناس . قال عمير : أشهد أن حكمة الله بالغة ، وأن الرجل الرشيد خليق أن يتعظ بما فهم من قضاء الله ، وأن يطمئن إلى عدل الله وعفوه إذا أشكلت عليه الأمور . قال محمد بن نصر : فانى لا أعرف شيئاً يغسل عن النفس اثمها وينقيها من السيئات كهذا الذى نحن فيه من جهاد عدو الله ما وجدنا الى هذا الجهاد سبيلاً

طه حسين

حول الهجرة

للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

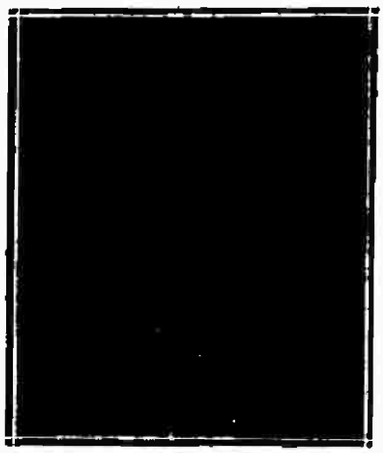

تحتفل (الرسالة) اليوم بذكرى حادث كريم لم يكن بعد النبوة أعظم ولا أبعد أثراً منه فى تاريخ الاسلام بل فى تاريخ الانسانية . فلولا الهجرة ماظهر الاسلام ولا غلب على جزيرة العرب ، ثم على أهم مواطن نصف الكرة الشمالى من الأرض .

ولولا ظهور الاسلام ، وما استلزمه من جهاد فى سبيل الله ، وما أنزله الله من هدى يهدى به المجاهدين سُبُلَه ، لحرم الانسان ذلك الهدى ، ولظل فى أموره موكولاً إلى نفسه ، لا يكاد فى السلم يقف عند حد فى طلب اللذة ، ولا يكاد فى الحرب ، كما تشهد الحرب العظمى ، يقف عند حد فى إتيان ما يظن أنه يكفل له النصر . فالعهد الذى كان فى الاسلام قبل الهجرة إنما هيأه الله ليؤدى بقدر منه إلى الهجرة ، ثم إلى ما كان فى حياة الرسول بعد الهجرة . وهو إلى ذلك كان عهد تشريع من الله على يدى رسوله للناس فيما ينبغى أن يفعلوه إذا كانوا فى حالة من الضعف لا يملكون معها من أمورهم إلا القليل : يصابرون فى سبيل الله ويصبرون ما استطاعوا ، ويهاجرون إن استطاعوا بدينهم فى سبيل الله إلى حيث يمكنهم أن يقيموا دينهم آمنين ، فان أمكنتهم بعد ذلك قوة يستطيعون بها الدفاع عن دينهم ولو بالسلاح ، فقد وجب الدفاع . إنما عليهم فى كل ذلك ، مهما يكن الحال ، أن يستمسكوا بدينهم كما يستمسك الغريق بحبل النجاة

والعهد الذى كان فى النبوة بعد الهجرة كان ، فيما كان ، عهد تشريع من الله على يدى رسوله للناس فيما يجب عليهم وما ينبغى لهم فى حال القوة ، سواء أكانت قوة ناشئة قد قام حيالها الأعداء أم كانت قوة غالبة قد مكن الله لأهلها فى الأرض ، فلم تبق يد أعلى من أيديهم ، ولا كلمة تنافس كلمتهم فى الرفعة والسلطان .